فى بيـــتى ...

أعمرت كتب العقاد

للأستاذ عبده حسن الزيات

هذه سياحة فى مكان واحد تحققت فيها وحدات « أرسطو » الثلاث فلم تتجاوز بيت أستاذنا العقاد ، ولم تَعْدُ شطراً معيناً من نهار ، وانحصر نظرنا فى مشهد واحد هو مشهد الحوار بين العقاد وصاحبه ، فجاءت سياحة فريدة فى بابها وكأنما حسبَ المؤلف أن تحتاج إلى دفاع فقال : « إن السياحة ياصاحبى لها حجتها الناهضة فما هى بحاجة منا إلى حجة جديدة . ولكن المكث فى المكان الواحد أيضاً له حجته التى تضارع حجة السياحة ولا تقصر عن شأوها ، فإذا كانت مشاهدة الأمصار ومداولة الديار تعلمنا الحكمة وتبصرنا بألوان الحياة فاعلم يا صاحبى أننى لا أعرف شيئاً ينفذ بنا إلى حقائق الآمال والمخاوف ، وبواطن الأفراح والأحزان ، كراستنا لها فى المكان الواحد الذى يقل فيه التغيير » .

ولكنها فى الواقع لم تكن محتاجة إلى هذا الدفاع فهى سياحة حقيقية فى معارض الآراء والفلسفات ومسارح الأذهان ومحافل الموسيقى ، ومواقع المذاهب ، ومعانى البطولة ، ومجانى الشعر ، ومغانى الصور . ولم يكن العقاد فيها سائحاً بقدر ما كان ملاحاً وأستاذاً فى جامعة من هذه الجامعات التى حدثونا أن السفينة جدرانها ، والأفق العريض سبّورتها ، وأمواج البحور مُدَرّجاتها ؛ رحلة دسمة زاخرة بالمشاهد لا أدرى كيف استطاع هذا النوتى الماهر أن يطويها فى هذا الزمن القصير وهو ١٣٢ صفحة من ورق « اقرأ » ، وذلك فى طمأنينة مريحة لم تشعر السَّفر بدوار ولا تركتهم يحسون إحساس المجدّل عن التقصى وملء النفس من روائع الجزر والمرافئ .

* * *

فى هذه الرحلة أو فى هذا الكتيب تعرض على القارئ أمور كثيرة منها : النور والتملى فيه وسيلة وغاية ، الروح والمادة والشأن العملى لبحوث ما وراء الطبيعة ، فلسفة النسك ، مذاهب السخط والتشاؤم وبيان ما فيها من هدم وبناء ، نقد المذاهب الشيوعية والنازية والفاشية ، الموسيقى وتصوير المعانى والنسبة بين الموسيقى الشرقية والغربية ، آداب الطرب ، الموازنة بين عظماء الفنون وعظماء الدعوات العملية ، الموازنة بين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول ، فلسفة التغذية وعلاقة الأطعمة برقى الأمم ، شرح بعض الصور العالية مثل « شالومة » للفرنسى بروسير و « الزهرة » للأسبانى فلاسكيه ، الفنان والعصبية القومية ، وحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات ، البومة وشهرة الشؤم ، ابن الرومى ومحسنه ، تقدير الموهبة التصويرية فى شعره ، الإلمام بصور بعض المصورين المصريين المحدثين ، تقدير القصة وبيان مكانها بين سائر ألوان الأدب ، السيكولوجية والقصة ، الشيوعية والقصة ، التماثيل والأخلاق الخ .

* * *

وقد كنت أحب أن أعرض رأى المؤلف فى هذه الامور جميعاً ولكنه عمل فوق طاقة نقد قصير معجل فحسبى أن أسجل بعض الخواطر التى قامت فى نفسى إثر القراءتين الأولى والثانية لهذا الكتاب النافع الممتع .

رجالا يبكون ، ولكنهم يبكون هذه المرة من الفرح ، وكانت تلك هى (الدموع) الأخرى !

* * *

اللهم لك الحمد أن أحييتنى حتى رأيت هذا المشهد ، اللهم لك الحمد فما أبالى بعد اليوم أن أموت ، لقد أبصرت وطنى حراً مستقلا له راية ترفرف ، وعلم يخفق ، وجيش كان عليه فصار له ، وجند كانوا يحاربونه فصاروا يحمونه ، لقد غدوت الآن أقدر أن أقول مباهياً مفاخراً : إن لى وطناً !

اللهم علم قومى كيف يحفظون استقلالهم ، وشدد خطاهم نحو وحدتهم ، التى لا حياة لهم إلا بها ، ولا اعتماد بعد الله إلا عليها !

اللهم وارحم أولئك الأبطال الذين سقوا بدمائهم هذه النبتة الكريمة حتى صارت دوحة ، شهداء الاستقلال من لدن يوسف العظمة شهيد ميسلون ، إلى حسن الخراط شهيد الغوطة ، إلى أخى ورفيق مدرستى شهيد الواجب ، الطبيب مسلم البارودى ، الذى أقبل أمس يسعف الجريح من أبناء الوطن ، فقتله أعداء الوطن ... رحمة الله على الجميع

على الطنطاوى

— ١ —

تجلت ملكات العقاد الأصيلة أو تجلى كثير منها ، فى هذا الكتيب بصورة أخاذة رائعة ؛ وإنى أصارح القارىء أنى سألت نفسى هل انطلق قلم العقاد على سجيته أو رسم له صاحبه رسماً معيناً واختط شرعة وبذل بعض الجهد لتحقيق هذه الغاية ؟ تساءلت ولم أقطع بجواب لأنى حين رأيت الشعر المنثور المترقرق يزكى الفرض الأول ، ورأيت الجدل العلمى الدقيق المستند إلى الحجج المنطقية والمادية يؤيد الفرض الثانى :

نعمت بهذا الشعر المنثور المؤثر فى مطلع الكتاب :

«قلت لك يا صاحبى إننى أحب مدينة الشمس لأننى أحب النور أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً ، وأحبه مخزوناً كما يخزن فى الجواهر ، وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر ، وأحبه فى العيون وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون !

ويوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبنى أننى أتنحها فلا أرى منها إلا النور ... والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور .

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ويملأ الروح ويصل الأرض بالسماء ؟

قلت لك يا صاحبى إننى أحببت النور فسكنت فى مدينة النور!

فإننى لا أحبه لأنه يرينى الدنيا وما فيها أو لأنه هو واسطة الرؤية وأداتها ، ولكننى أحبه لأراه ولو لم أر شيئاً من الأشياء .

وقديماً كنت أقول إن الأرواح تخف فى النور كما تخف الأجساد فى الماء ، كأنما هى تسبح وتطفو عليه » . ثم نعمت واغرورقت نفسى رقة لقوله فى ختام رحلته :

« إذا وجل القلب فهذا الكرسى يعلمنى أن الخوف عبث وأن الذى أخافه قد يخطئنى ويسبقه إلى الذى أرجوه ، فكم من مرة جلست عليه أطيل النظر فى أعقاب الأمور وأقلب الظنون فى كل وجه من الوجوه ثم جاء الوقت المحذور ولم يجىء معه ما حذرناه !

وإذا تقطعت النفس حسرات على نعمة من نعم العيش فهذه الشرفة تقول لى : بل انتظر طويلا أو قصيراً فسترى كما رأينا وسنعلم كما علمنا أنك ستعيش بغير هذه النعمة التى كنت تقرنها بالحياة .

... وهذا المكان قد صعدت سلالمه ثلاثاً ثلاثاً ثم صعدتها اثنتين اثنتين ثم أصعده درجة درجة على غير عجلة ولا اكتراث ، وهذا المكان قد نزلت به والشعرات البيض يتوارين فى السواد ، وما زلت أنزل به والشعرات السود يتوارين فى البياض ... »

ولكن هذا الشعر المنثور وما استدعاه القلم أحياناً من الاستشهاد بشعر منظوم بعضه من شعر المؤلف القديم ، ليسا إلا « نثارة » وسط ذخائر من المناقشات الحادة والبحوث الجادة تنتظمها دفتا « السفينة » أو دفتا الكتاب :

انظر إلى هذه المناقشة لما قرره « أرثر بلفور » من نفى الصلة بين عالم المادة وعالم الروح واقرأ هذه المحاجة الدقيقة السلبة الناعمة :

« إنما ساء فهم المادة والروح معاً من تصور الأقدمين هذه وتلك إذ وضعوهما موضع النقيضين وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها . إنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم أنك صدمت الحقيقة التى لا تقبل المراء إنما تصدم شيئاً غير الكثافة أو الجرم الذى يحسب عند بعض الناس وجوداً لا يقبل الإنكار . فإنما الوهم كل الوهم هذه الكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس . هذه الكثافة المادية لا شىء يا صاحبى لولا القوة التى تكمن فى أطوائها ... وإن شئت مصداقاً لذلك فافرض أن يدك التى تقف عند هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة فهل تقف عندها ؟ كلا إنها لا تقف عندها بل تعبرها . كما تعبر الماء أو كما تعبر الهواء ، أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل فى تلك الكثافة المادية فادفع الماء بقوة من بعض العيون ... إنك إذن لتضربه بالسيف القاطع فلا يمضى فيه ... فليست الكثافة المادية هى الحقيقة التى لا مراء فيها بل القوة هى الحقيقة الكامنة فى تلك الكثافة وفى كل مادة ملموسة أو محسوسة » .

ثم نطوى نحو ثلث الكتاب لنقابل بحثاً أعمق فى الميتافيزيقا وسر الوجود : « إن الفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم ، فالوجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! وموجود بلا نقص ، لأن النقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك ... موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور ... والوجود الكامل الأمثل هو الله »

(البقية فى العدد القادم) عبده حسن الزيات